«صُورِيّ» وأعظم «الإخوة» كرشاً وأصغرهم سنّاً إذا استثنينا «ماني». بل لقد كان أحدث من هذا الأخير عهداً بالجماعة. وكان أبوه، وهو تاجر تبدو عليه مظاهر النعمة، قد وصل على غير انتظار إلى بستان النخيل قبل ثلاث سنوات من غير أن تُعْلَم في الواقع الدوافع الحقيقية إلى مثل هذا الإيمان الطارئ. وعندها سرى الهمس بأن الدهر قد قلب له ظهر المِجَنّ، وبأنه فَقَد أُسرته ومُمتلكاته، وإذ لاحقه دائنوه فقد جاء يلوذ بهذا المكان لستر مصائبه وإسدال ستار النسيان على نفسه. ولقد مات غريقاً بعد بضعة أشهر، ولا بدّ أنه كان قد فَقَدَ طَعْم الحياة. وعلى هذا النحو وجد «مالكوس» نفسَه، مثل «ماني»، وليس ابنَ أحد.

وهناك فارق مع ذلك، وهو أن «ماني» قد غادر (ماردين) صغيراً جدّاً، وأن أعواماً طويلة قد انقضت منذ الاكتمال الطفوليّ الذي عرفه بين «مريم» و«أوتاكيم» وتمثّل في الأيام الهنيئة القابعة في ركن كَدِر من ذاكرته. وقد ظلّت أجمل ذكرياته الخاصّة بالروائح والطعوم معجونة بالمرارة الكأداء، مرارة الطفل الذي أسلمه أو تركه أو تخلّى عنه أو ـ على الأقلّ ـ أساء حمايته أعزّ مخلوق على قلبه. ومذّاك كانت وحدها ماثلة أمامه هذه المحنة اليومية الغامرة، ذلك الجدار الصفيق المنتصب من بستان النخيل إلى السماء ولا يجسر شيء على أن يقوم خلفه. في حين أن «مالكوس» كان قد عاش في العالم الرحب طفولة حقيقية ما يزال يحنّ إليها ويحتفظ بعاداتها.

وكان يكفي للاقتناع بذلك سماعُ ضحكته. ولقد كان الضحك يبدأ عند «أصحاب الملابس البيضاء» بالتَّنَحْنُح ويبلغ مداه في هِناف أشبه بالفُواق وينتهي بشكل إماتة للنفس. وكانت ضحكة «مالكوس» تُقْبِل من خارج هذا المكان. فقد كان ينشرح ويُرعِد ويتبختر؛ وإذا لم يتجاوب معه أحد مدّ في شأو ضحكه بنفشاته هو؛ وإذا ظُنَّ أنه قُمع انفجر ثانية، ولا سيّما في لحظات الاحتشاد الجماعي الكثيف. وكانت تلك الانتهاكات تعود على الفتى «الصُّورِيّ» بعقوبات تكاد تكون أخفّ من التي تنزل به لدى عودته بعد هربه في كل مرّة؛ ولم تكن مع ذلك غير غيبات لبضع ساعات، بيد أن «سيتايي» كان يتّهم المراهِق بأنه